الفصل الأول:
المولد والنـــشأة

obeikan

الفصل الأول: المولد والنشأة

نسبه:

هو أبو إبراهيم محمد بن إبراهيم بن محمد بن ناصر السبيعي، يعود نسبه إلى قبيلة سبيع المشهورة في القصيم، والده هو إبراهيم بن محمد السبيعي من مدينة عنيزة، وهي من المدن الكبيرة والمشهورة في منطقة القصيم، ومن أقدم مدن نجد تقدماً في الحضارة والعلم، توفي والده في المدينة المنورة في شهر شعبان لعام ١٣٤٤هـ، حيث كان يعمل في إصلاح السلاح مع أكبر قادة الملك عبدالعزيز - طيّب الله ثراه - وهو إبراهيم النشمي.

وأمه نورة بنت ناصر العماش من البدائع في القصيم، وهي من بيت علم ودين، وينتهي نسب العائلة إلى قبيلة قحطان. توفيت عام ١٤٠٤هـ -رحمها الله -.

مولده ونشأته:

ولد محمد السبيعي في مدينة عنيزة عام ١٣٣٣هـ، وهو عام مشهور في جزيرة العرب فقد شهد معركة (جراب)،وقد كان سكان الجزيرة العربية - في ظل الوسائل المحدودة - يؤرِّخون حياتهم حسب الأحداث والوقائع التي تقع فيها؛ لذا سمي ذلك العام «سنة جراب»، ودارت رحى المعركة بين الملك عبدالعزيز - رحمه الله - وابن رشيد، وانتصر فيها الملك عبدالعزيز، وكان عبدالعزيز بن عبدالله بن يحيى السليم أميراً لعنيزة في ذلك الوقت.(١)

(١) مدينة عنيزة بين الأمس واليوم ،تأليف الدكتور محمد بن عبدالله السليمان.

obeikandi.com

وقد ولد محمد السبيعي بعد قيام الحرب العالمية الأولى بسنة واحدة. ولقد كانت والدته - رحمها الله - هي الأم والأب بالنسبة له، لأنّ والده كان يتنقل ما بين مكة المكرمة والمدينة المنورة سعياً إلى طلب الرزق، حيث كان الفقر يضرب أطنابه على معظم سكان الجزيرة العربية في ذلك الوقت، وكان أهل نجد يغادرون مناطقهم إلى بلاد الحجاز والشام والهند للتجارة والبحث المضني عن لقمة العيش مرددين المثل القائل:

الهنـــد هندك إذا قـــلّ ما عندك

والشـام شامك إذا ما الدهر ضامك

لذلك أدركت الأم أنّ عليها واجب استثمار وقتها وتكريس حياتها وجهدها لتربية ابنيها، فليس لهما معين - بعد الله - سواها، فكانت تواصل العمل ليل نهار في حياكة الملابس وتطريزها حتى تستطيع تأمين بعض ما تحتاجه أسرتها الصغيرة دون أن تستجدي أحداً من الناس.

لقد كانت غريزة الأم - بحنانها وعطفها - تسبغ على حياة ولديها الأمن والكفاية على الرغم من مشاغل الزوج الذي كان يكتفي بزيارتهم كل ست سنوات في إجازة تمتد لأربعة أشهر فقط يعود بعدها للسعي في طلب الرزق في زمن شحيح الموارد.

ثمانية أشهر فقط قضاها محمد السبيعي مع والده، وسرعان ما توفي والده وعمر ابنه محمد إحدى عشرة سنة لتبدأ رحلته مع اليتم في هذه السن المبكرة، ومع تراكم هذه الظروف القاسية، أدرك الصبي واجبه في السعي للبحث عن عمل يكفل له ولوالدته وأخيه عبدالله لقمة العيش، فقرر التوجه إلى مكة المكرمة مع عمه ناصر السبيعي، الذي وفد إلى القصيم لسداد دين عليه، فقرر محمد التوجه معه إلى مكة المكرمة، ولما عزم أمره استشار والدته التي وافقت على مضض.

وقد كان اختياره لمكة المكرمة شرَّفها الله موفقاً، فهي - آنذاك - ملتقى التجار من أنحاء العالم، حيث يتوافد الحجاج والمعتمرون، إضافة إلى قربها من ميناء جدة البحري.

لقد كانت قسوة الحياة وشظف العيش - إضافة إلى فقدها الزوج - عوامل أجبرت الأم على الموافقة والرضوخ للواقع. فاستودعت الله صغيرها والدموع تترقرق في عينيها خوفاً على مستقبل ولدها وحياته، حيث كان الانتقال من مكان إلى آخر في ذلك الوقت هو رحلة إلى المجهول ومغامرة صعبة، فقد كانت وسائل الاتصال معدومة.

كان موكب الحجيج يجتمع على مسيرة يوم عن مدينة عنيزة، ثم تبدأ القوافل بالسير ومعهم «الهوادج» لحمل النساء فوق الجمال، وكان بعض الحجاج يأخذ معه التمر والدبس(١) والمضير(٢) والسمن

كانت رحلة الحج إلى مكة قبيل توحيد المملكة تشكل تحدياً كبيراً للحجاج نظراً لوعورة الطريق.

(١) *الدبس: هو ما ينتج عن التمر بعد ضمده ووضع ثقل عليه وهو يشابه العسل.*

(٢) *المضير: هو اللبن المطبوخ والمجفف.*

لبيعه في مكة والعيش منه أثناء في رحلة الحج في مواءمة بين أداء الفريضة والتجارة.

ويروي محمد السبيعي ابن الأحد عشر عاماً - حينها - ما حفظته ذاكرته من تلك الرحلة الأولى له في حياته خارج أسوار عنيزة، يقول:

«كانت الرحلة شاقة، والطريق طويلاً، والماء شحيحاً، وقد وردنا إلى بئر ماء اسمها «العتمة» قريبة من الدوادمي، وكان ماؤها كدراً جداً، فشربنا منه لأننا لم نجد غيره».

سار محمد مع عمه في موكب الحجاج عام ١٣٤٤هـ في شهر ذي القعدة على الجمال في رحلة شاقة استغرقت سبعة وعشرين يوماً حتى وصلوا إلى مكة المكرمة.

تعليمه:

لم يكن التعليم في منطقة القصيم بأسرها يرقى إلى مستوى جيد، فقد كانت الأمية متفشية بين عموم الناس، والحركة الثقافية ضعيفة ومحدودة في عوائل معينة ، وكان التعليم بدائياً في أساليبه، ومحصوراً في العلوم الدينية التي كانت كتبها تصل للقصيم أكثر من غيرها من مناطق الجزيرة؛ لكون منطقة القصيم أكثر البلاد النجدية اتصالاً ببلدان خارج الجزيرة العربية عن طريق مهنة التجارة ومرور القوافل التجارية وقوافل الحجاج بها.(١)

قرأ السبيعي نصف القرآن الكريم في عنيزة على يد الشيخ عبدالعزيز الدامغ - رحمه الله - الذي كان يدرِّس القرآن الكريم لوجه الله تعالى، فكان بعض الطلاب يعطيه الفطرة في رمضان، وبعضهم يعطيه ريالاً ونصف الريال كل سنة، وبعضهم لا يعطيه شيئاً، وكان معلِّم القرآن آنذاك لا يشترط أي مبلغ لتعليم الطلاب.

(١) *مدينة عنيزة بين الأمس واليوم، تأليف محمد بن عبدالله السلمان، ص٦٩*

obeikandl.com

كان الشيخ السبيعي حريصاً على اصطحاب أبنائه إلى اللقاءات الاجتماعية، ويظهر هنا مع ابنه عبدالعزيز في أحد لقاءاته بأقربائه. وهم من اليمين محمد الخشيبان وعبدالعزيز العبدالله السبيعي.

وكـــانت أسرة آل دامغ أسرة عريقة في العلم تعلّماً وتعليماً، وقد توارثوا التعـليم في عنيزة منذ عام ١٢٥١هـ، وكان السبيعـي عـلى صلة نسب بهم، فقد تزوج ابنتهم موضـــي محمد الدامـــغ، وقد توفيت -رحمها الله- وله منها بنت هي أكبر أبنائة وهي لولوة محمد السبيعي.

ونظراً لقلة ذات اليد لدى أغلب الأسر إذ ذاك فقد كانت جميع مستلزمات الدرس تُصنع من الأدوات المتوافرة في الطبيعة حسبما يقول السبيعي: «كنا نأخذ معنا لوحاً خشبياً ودواة وهي الحبر، وعوداً خشبياً للكتابة، كذلك يستعمل الغرين، وهو نوع من الطين

لمسح اللوح، ثم يضيف: ومن الذين كانوا يدرسون معنا الشيخ عبدالرحمن الطاسان -رحمه الله-» ويتذكر محمد السبيعي أنه بينما كانوا مرة في الدرس، إذا بهم يفاجؤون بزيارة سلطان نجد والحجاز وقتها الملك عبدالعزيز آل سعود وهو في موكب من السيارات الحديثة. يقول أبو إبراهيم: أذكر أن الملك عبدالعزيز -رحمه الله- قام بزيارة إلى مدينة عنيزة على سيارة، وعندما سمع سكان عنيزة صوت السيارة انزعجوا، فجاءهم ابن غصون - وهو من الذين عاشوا مدة من الزمن في العراق، ويعرف السيارات من قبل- وقال لهم هذا في العراق يسمونه «ترمبيل»، وهو وسيلة نقل؛ حتى يهدئ من روعهم، أما المعلم ابن دامغ فقال: الحديد يمشي هذا من علامات الساعة، ومن جراء هذه الصدمة بقي مريضاً حتى توفي -رحمه الله-.

وفي عام ١٣٤٤هـ -وهو العام الذي دخل فيه الملك عبدالعزيز مكة المكرمة- أدخله عمه الكتّاب بمكة ليستكمل ما بدأه من حفظ القرآن الكريم عند المعلِّم عبدالماجد الشنقيطي بكتّاب مقري الفاتحة بالمدعي بمكة المكرمة، وتبيَّن للأستاذ أن في قسمات الفتى نبوغاً يلفت الأنظار وأعجب الأستاذ بنباهة التلميذ، حيث وجد فيه شغفاً بالعلم والتعلُّم، وميلاً لملازمة الدرس، وعندما انتقل الأستاذ عبدالماجد الشنقيطي -رحمه الله- إلى مدرسة الفلاح(١)، وكانت هي المدرسة الوحيدة في مكة ومديرها هو الأستاذ عبدالله حمودة السناري أقنع الأستاذ الشنقيطي

(١) افتتحت في عام ١٣٣٠هـ بمكة أي بعد سبع سنوات من تأسيسها بجدة، وكان مؤسسها الشيخ الحاج محمد علي زينل، ولها دور كبير في تبديد ظلمات الجهل، بل إنها كانت الجسر الذي مرّ عليه التطور العلمي في منطقة الحجاز.

العم أن يوافق على نقل ابن أخيه محمد إلى المدرسة عوضاً عن الكتّاب فوافق العم.

يقول أبو إبراهيم عن تلك المدرسة: «كانت مدرسة الفلاح تضم نخبة من الأساتذة الذين هم أهل للثقة، ومنهم الأستاذ سليمان الغزاوي -رحمه الله- الذي كان يدرِّس الخط، وقد كان خطه رائعاً، والأستاذ إبراهيم النوري لعلوم القرآن، والأستاذ عبدالوهاب آشي للإملاء، والأستاذ محمد القوري للتجويد».

وبعد فترة وجيزة أدرك العم أن المدرسة ليست كالكتّاب؛ لأن الطالب يقضي فيها معظم النهار؛ وهذا يعني انقطاع ابن أخيه عن العمل في الدكان، وهذا لم يرق للعم فأخرجه من المدرسة.

وعلى الرغم من تفهم الابن محمد لدوافع موقف عمه ناصر، ولا سيما أن رحلته من عنيزة إلى مكةكانت للعمل وطلب الرزق وليست للدراسة وطلب العلم إلا أنه ما زال يتذكر هذا الموقف بشيء من الحسرة والندم على فوات فرصة متابعة التعليم، ولنستمع إليه يروي ما حصل، إذ يقول:

«عندما كنت أدرس في المدرسة سألني عمي عن أحوال الدكان وكنت منشغلاً في مراجعة واجب الحساب وأجمع أرقاماً بلغت خمسين ألفاً، فما كان من العم إلا أن نهرني وأمرني بالانتباه للدكان وصرف النظر عن جمع وطرح تلك الأرقام الخيالية، وقال لي «لو أنك ملكت عشرة آلاف فقط طوال عمرك وليس خمسين ألفاً فأنت عنترة ابن شداد».

وكان من يقرأ القرآن ويكتب الخط في ذلك الوقت يوازي تعليمه

المستوى الجامعي في عصرنا هذا، فقد كانت الأمية متفشية في المجتمع المكي، ولم يكن هناك إقبال على التعليم لانعدام الحوافز والمشجعات لدى الطلاب؛ لذا كان أغلب مَن التحقوا بالمدارس من غير المكّيين.(١)

(١) تاريخ التعليم في مكة المكرمة، تأليف الأستاذ عبدالرحمن صالح عبدالله.

obeikandl.com